

عقيدة القبالة ودورها فى تشكيل العقلية اليهودية العنصرية المعاصرة
نشر : رسالة المعرفة ، العدد الثانى ، السنة الثالثة عشر ، ٢٠٠٤ م ، مركز
تنمية البحوث ، القاهرة .
ومجلة الدراسات الشرقية ، العدد الثالث والثلاثون ، يوليو ٢٠٠٤ م

القبالة ، عقيدة يهودية تبحث فى أسرار الكون والخالق والمخلوقات عن طريق
اللجوء إلى تفسيرات غيبية، وتأثيرات باطنية تهدف إلى الوصول لتحقيق نظرية حلول الإله
فى الفرد اليهودى ، وامتلاك هذا الفرد إمكانية التأثير فى الإله لحلوله فيه ، وتأكيد فكرة
حلول الإله فى الشعب اليهودى واعتبار أن شعب إسرائيل شعب خاص متميز، وهو الحاكم
فى النهاية لكل شعوب الأرض .

ويعتقد أصحاب هذه العقيدة أنهم الوحيدون أصحاب السيادة والمعرفة فى الأرض، وهم
الفاهمون ، والعقلاء ، والعارفون بالحقيقة الكونية الذى سيظهر المسيح المنتظر منهم ، وقد
حل فيه الإله بكل مقوماته، وهو الذى سيقود الشعب لتسييده على كل شعوب العالم. وهذا
هو الفكر المعاصر الذى يتعامل به اليهود مع شعوب الأرض قاطبة .

وقد تولد عن التفسيرات الباطنية الحلولية التى اعتمد عليها أصحاب هذا الفكر، عدد
من الحركات المسيحانية التى قامت فى التاريخ وأهمها الحركة الشبتائية والتى ادعى
مؤسسها أنه المسيح المنتظر، وغيرها من الحركات التى ظهرت على مر العصور، والتى
أثبت التاريخ فشلها جميعاً.. إلى أن انتهت بالحركة الصهيونية التى يؤمن مفكروها أن
الدوافع الأسطورية التى فى القبالة، هى القوى الخفية فى اليهودية فى القرن العشرين، وأن
الصهيونية تكمن طاقتها فى هذه القوى الخفية ، حتى أصبحت الصهيونية نفسها ، هى
المخلص !!

وقد انتشر الفكر القبالى فى القرن الثانى عشر الميلادى كمحاولة لإيجاد مخرج دينى
وجدانى للأزمة النفسية التى يعيشها اليهود فى أنحاء العالم بين التشتت والنفى وإثبات
هويتهم التى يفتقدوها . ولا يزال هذا الفكر مسيطراً على أنماط العقلية اليهودية ، طبقاً لما
ورد فى أفكاره ونظرياته حول بدء الخلق وماهية الإله وتجلياته وحلوله فيهم، ويبحث فى
أسرار الخالق والمخلوقات، والعوالم السماوية وأسرار الكواكب والملائكة، ويبحث فى رموز
وأسرار الحروف، وتحديد وقت عودة المسيح المنتظر الذى يأتى لحمل رسالة تقر بسيادتهم

على العالم، وتعلو من شأن عنصريتهم على البشر، باستناده على الخرافات والبدع والأساطير وكافة أنواع الغيبيات ، والاعتماد على أمور السحر والتنجيم والتنبؤات والأحلام والرؤى واستخراج الرموز الدالة على معانى الحروف واستخدام الأعداد الحسابية لمعاني الألفاظ الواردة بالتوراة .

وتعرف القبالة بـ"التصوف اليهودى". وطبقا للمنظومة الحلولية التى يبلورها الفكر القبالى فتتمثل فى العناصر الثلاثة "الإله، والإنسان، والطبيعة"؛ فالإنسان هو الشعب اليهودى ، والطبيعة هى الأرض اليهودية ، والإله يحل فيهما معا فى مزيج قدسى واحد ، حيث يهدف هذا الفكر الى إعلاء الإنسان اليهودى للسيادة على العالم .

وفيما أعلم فإن هذا البحث المتواضع يعد الأول من نوعه الذى يتناول الفكر القبالى اليهودية وتأثره الديانات الشرقية والفلسفات الهندوكية والمسيحية والغنوصية وامتزاج أفكاره وعقيدته بكل منهم، بالإضافة إلى تأثره بالفلسفة والأفكار الباطنية المعاصرة له . وهذه العقيدة لا تزال تسيطر على الوجدان اليهودى فى الوقت الحاضر ولا يزال الكثير يروج أفكارها بهدف الرغبة فى السيطرة والتميز على الأمم .

والهدف من دراسة هذه الدعوة هو كشف أسرارها ودعوتها التحريرية من كافة القيود والشرائع، ودعواها بشمولية الإنسان فى الكون.. حيث سيطرت تلك العقيدة على الفكر الدينى اليهودى بوجه عام حتى إنها حلت مكانة التوراة والتلمود لديهم زاعمين أن من يعرف أسرار هذه العقيدة يستطيع ان يتحكم فى العالم بأسره وبإمكانه التأثير فى الإرادة الالهية عن طريق معرفته بأسرار الخالق ومن ثم السيطرة على الكون .

وتأتى أهمية هذه الدراسة فى تأثيرها على تشكيل العقلية الدينية اليهودية وفهم النمط الفكرى الوجدانى الذى يركز عليه يهود الوقت الحاضر - وخاصة الصهيونية - تجاه وجودهم داخل المنظومة العالمية ونظرتهم العنصرية فى تفردهم وتميزهم عن غيرهم من بنى البشر . إلى جانب نزعتها المسيحانية والتى تمثلت فى عملية الخلاص الكونية لتحقيق الإصلاح الكونى بسيطرة اليهود على العالم وتحقيق فكرة أن الشعب اليهودى هو الأداة التى يسترد بها الإله ذاته - بحسب زعمهم .

وتكمن خطورة عقيدة القبالة من خلال النتائج التى توصل اليها وهى :

- انتشار المفاهيم القبالية وتعاليمهما عن طريق اتباعها فى أنحاء العالم خاصة الغربى .
- تأثر الفكر الصهيونى بالمفاهيم القبالية فى تأكيد وحدة الإله بالشعب اليهودى والأرض اليهودية وحلوله فيهما باعتبار أنهما مزيج قدسى واحد وصولاً إلى دعوى مركزية أرض إسرائيل المقدسة .
- يؤكد اليهود أن تعاليم القبالة ليس لها علاقة بدين وإنما هو اتجاه شمولى فى الجوهر الإنسانى يتعلق بالإنسان وليس الدين ، وذلك بهدف استقطاب جمهرة من التابعين له فى كافة أنحاء العالم .
- أن تفسيرات هذه العقيدة الباطنية تقوى لدى اليهودى الشعور بالسيادة على البشر والايمان بالثالوث المقدس : " التوراه " ، و" شعب إسرائيل " ، و" أرض إسرائيل " .
- ساهمت هذه العقيدة فى تصاعد الفكر الصهيونى الذى ينادى بإعادة الأرض إلى اليهود لقداستها وفكرة التعجيل بالنهاية - أى دون انتظار لمجئ المسيح - ومن ثم تحقق لهم فكرة تعجيل السيادة على شعوب الأرض .
- أن اليهود فى كل زمان ومكان يتصورون أن وجودهم كشعب يعنى أنهم فوق التاريخ وخارج الزمان نتيجة لعقيدتهم فى حلول الإله فيهم فيكونون "وحده وجود واحدية مادية".
- ساعد الفكر القبالى فى تزايد العقيدة الحلولية لدى اليهود بتصوراته عن الإله عن طريق تفسيرات وتأويلات باطنية تضمنتها كتبهم ، وخاصة كتاب الزوهار الذى وضعوه فى مكانة أعلى من التلمود، ووصفوا المؤمنين به أنهم الحكماء ، العارفون بالأسرار الإلهية الخفية .
- ساعد الفكر القبالى اليهود على التعلق بفكرة عودة المسيح المنقذ لخلصهم من الاضطهاد والنفى الذى تعرضوا له فى مراحل الشتات التى يعيشونها فى أنحاء العالم وخاصة أثناء الاضطهاد الإسبانى لهم .
- إيمان اليهودى بتخصيصه بالسيادة على البشر نتيجة لتأثيرات وتفسيرات القبالة التى تعلقت بنظرية التجليات الصادرة من الإله، التى تتجلى جميعها وتفيض فى الإنسان الأزلئ، والتى انفصلت عنه بسبب خطيئة آدم ؛ لذا فهم ينتظرون اللحظة التى يتحد فيها الإله مع الشعب اليهودى ويصبح الإنسان اليهودى مشاركاً للإله فى الإرادة .
- إضفاء القداسة على مفهوم الخطيئة وإقحام الغرائز الجنسية ضمن التصورات الإلهية ، والتى تدور حول مفهوم "الشخيانه" والتى تفسر - بحسب زعمهم - أنها الجانب الأثنوى للإله ، وأنه

بسبب الخطيئة اغتصبها الشيطان ، ويمثلونها بشعب إسرائيل والتي سوف تتحد في النهاية مع الإله ، وهذا المفهوم في القبالة يعبر عن قمة الإباحية الجنسية .

• أثبت البحث أن أصحاب فكر القبالة حاولوا التقرب للطرق الصوفية الباطنية ، ومنهم من أسلم ظاهرياً مثل شبناى بن تسفى وجماعة "الدونمة" الذين أبطنوا اليهودية واعتنقوا الإسلام. وبرروا اعتناقهم الإسلام بأنه مهمة مقدسة لتطهير العالم من الدنس .

• أظهر البحث عدم استقلالية أفكار وعقائد القبالة الباطنية حيث أثبت تأثرها بأفكار هندوكية وزرادشتية وغنوصية ومسيحية .

• سيطرت أفكار القبالة على الفكر الصهيوني الذى آمن بفكرة الثالوث المقدس، التوراة وشعب إسرائيل وأرض إسرائيل ، وساهمت القبالة فى تصاعد معدلات الحلولية لدى الصهاينة بهدف إعادة الأرض إلى اليهود لقدسيتها، حتى اعتبرت الحرب ضد العرب ، من الأفعال المقدسة لتحقيق الرؤية التوراتية فى الخلاص .

• أكد البحث على أن عقيدة القبالة التى ظهرت فى القرن الثانى عشر الميلادى لا تزال باقية فى العقلية اليهودية المعاصرة ، ولا يزال اليهود يعملون من أجل ترويج مفاهيم القبالة باعتبارها أفكاراً سامية شمولية تسعى إلى تحقيق الشفافية والنورانية فى العالم ، بينما يخفون مبادئها المنحرفة ، والتى تقود إلى الشرك والهلاك وفقدان القيم والسلوكيات الصحيحة . وذلك عن طريق أجهزتهم الإعلامية التى تخدم أغراضهم الاستعمارية والاستغلالية والعنصرية فى محاولة لاستقطاب أكبر جمهور لتلقى تلك التعاليم السرية .

وللبحث أهميته على المستويين الإقليمى والقومى بكشفه أسرار هذه العقيدة التى تمكن اليهودى من تقوية شعوره بالاستعلاء والتميز عن مختلف الشعوب المغايرة التى يطلق عليها الجوييم أى الأغيار.